الخنوع مقتل إيران وسوريا

الدكتور عبد الستار قاسم

16/حزيران/2003

لعبت الولايات المتحدة مع سوريا لعبة التخويف القائم على سن الأسنان واستلال السيوف لتتخذ إجراءات سريعة بخصوص العراق والعراقيين وضد فصائل المقاومة الفلسطينية واللبنانية. لقد أطلقت أمريكا العنان لتصريحاتها التهديدية وعلى ألسنة العديد من مسؤوليها في محاولة لردع سوريا عن التدخل في شؤون العراق ولاستقطابها ضمن الحملة العربية الرسمية المناهضة لما يدعى بالإرهاب. استجابت سوريا إنما بقيت إجراءاتها دون الحد المطلوب أمريكيا. لكن المقصود حقيقة لم تكن المنظمات بقدر ما كان تقديم الدعم لمقاومة عراقية يمكن أن تتبلور ضد الأمريكيين.

انتقلت أمريكا بعد سوريا إلى تهديد إيران ولذات السبب.

أمريكا تخشى المقاومة في العراق وتعرف الإدارة الأمريكية أن مقتلها الانتخابي يتمثل في ظهور المقاومة واشتدادها مع الزمن. لا يوجد لدى الشعب الأمريكي استعداد لتحمل خسائر بشرية أو لاستعادة الشبح الفيتنامي. ربما كان الشعب مؤيدا بداية للحرب جريا على عنفوان "الكاوبوي" أو ظنا أن المسألة لا تعدو كونها لعبة حاسوب. وقد ساهمت الإدارة الأمريكية ووسائل الإعلام في بث الارتياح لدى الشارع الأمريكي من خلال الوصف الوفير لسهولة الحرب ورغبة الشعب العراقي في قدوم المخلّص.

على الرغم من الانتصار السريع الذي حققته أمريكا على قوات النظام العراقي، إلا أنها لم تفكر للحظة واحدة أن الحرب قد انتهت. وقد فاجأها العراقيون منذ اليوم الأول لدخول بغداد بالتزام منازلهم وعدم خروجهم إلى الشوارع مستقبلين. كان في ذلك نذير لوضع قد يكون مشؤوما، وتعزز بالاستقبال الفاتر الذي حظيت به قيادات عراقية قدمت من الخارج على ظهر الدبابات الأمريكية. فهل سيقوم هذا الشعب الذي كره النظام من سجنه لينطلق ضد الأمريكيين؟ رأت أمريكا أن الإجابة ليست محسومة، لكن من الأفضل أخذ الحيطة والحذر.

سوريا هي الأقرب من إيران على العراقيين وهي التي حاولت مساعدة العراق عسكريا مع بداية الحرب على الرغم من أن إيران تشكل القوة الاستراتيجية الأكبر في مواجهة الأمريكيين. لم يكن تهديد أمريكا لسوريا أولا ناجما عن التقدير الاستراتيجي وإنما عن تقدير ظرفي يخص المرحلة الآنية وليس المتوسطة أو البعيدة المدى. سوريا لها علاقاتها القوية مع عراقيين قادرين على تحريك أعمال مناهضة للأمريكيين سواء السلمية أو غيرها، أما إيران فتحتاج عدة أشهر حتى تستطيع التأثير بصورة منهجية في الأحداث من خلال مواجهة عنيفة. ولهذا تركز الضغط على سوريا أولا ليتم التفرغ لإيران ثانيا. وجدت أمريكا استجابة سورية فأخرجت التدخل السوري في العراق خارج المسرح، وهي تحاول الآن استعمال أساليب متعددة لكي تستجيب إيران. إنها تستعمل انتصارها بشكل رئيس للتدليل على القوة التي يمكن أن يواجهها من يتمردون على الإرادة الأمريكية.

لم تكن سوريا وإيران قبل الحرب خارج الهدف الأمريكي وذلك لأنهما إما يغردان خارج السرب أو أنهما ليستا مطواعتين تماما، وهما الآن تحت ضغط أكثر شدة ليس بسبب قرب القوة الأمريكية منهما وإنما بسبب الخوف الأمريكي. على عكس ما يرى العديد من قارئي السياسة على الساحة الدولة، هناك حاجة أمريكية ماسة لوقوف سوريا وإيران على الحياد تجاه العراق لأن التدخل سيقود إلى اشتعال وضع لا تريده الولايات المتحدة حكومة وشعبا. الإدارة الأمريكية بحاجة لأن تثبت للشعب الأمريكي وللعالم أجمع أنها الدولة المخلّصة التي تعمل على تحرير الشعوب من نير

الاستعباد والاستغلال، الأمر الذي لا يمكن أن يتأتى إذا نشبت في العراق مقاومة. هذه المقاومة يمكن أن تنشأ عراقيا لكنها بالتأكيد بحاجة إلى تعاون قوى خارجية سواء كانت على مستوى الدول أو الأحزاب أو التنظيمات. جهات عربية وإسلامية غير رسمية كثيرة لديها الاستعداد لتقديم العون للعراقيين لكن تعاون سوريا وإيران يبقى حيويا من أجل التسهيل وربما تقديم الدعم التزويدي (اللوجستي) والمادي.

سوريا وإيران لن تشطبا من قائمة التهديدات الأمريكية حتى لو لم تقدما دعما للمقاومة العراقية، إنما من الممكن أن تخفف أمريكا من لهجتها في حالة الاستجابة وكما لاحظنا بالنسبة لسوريا. استمرار التهديد الأمريكي لا يخدم أمريكا في هذه المرحلة إلا إذا كان بهدف الردع والتخويف عسى أن يتمخض عنه إجراءات تتمشى مع السياسة الأمريكية. أمريكا تبحث عن هدوء الآن ولا تبحث عن استعداء.

يرى بعض المحللين إمكانية استعمال الولايات المتحدة للقوة ضد الدولتين إن لم يمتنعا عن التدخل بالشؤون العراقية. هذا وارد وإنما من قبيل التخويف أيضا وليس من قبيل الغزو. من المحتمل أن تقوم أمريكا بضرب بعض الأهداف في سوريا وإيران من بعد، لكنها لن تقوم بعمل عسكري شبيه بما قامت به في العراق. السبب أنها لا تستطيع أن تحشد ما يكفي من القوات والتجهيزات القتالية الكافية لغزو دولة أخرى ضمن العقلية العسكرية الأمريكية القائمة على النفقات الحربية العالية مقابل ضمان عدد قليل من الخسائر البشرية. لا يوجد قوة أمريكية تقليدية ضاربة تغطي سوريا أو إيران مع الإبقاء على قوات إضافية جاهزة لمواجهة أي تهديد عسكري على المستوى العالمي مثل التهديد الكوري الشمالي للجنوبية. يمكن لأمريكا الآن أن تحرك قطعها البحرية وأن تجري بعض المناورات المحاذية للشواطئ الإيرانية والسورية وأن تطلق أطيافا متنوعة من التصريحات لكنها لا تستطيع أن تغزو.

إيران وسوريا سيكونان أمام تهديد كبير وحقيقي إذا استقرت الأمور لأمريكا في العراق وتعاون الشعب العراقي مع الأمريكيين وقبل بالترتيبات الأمريكية على مختلف الصعد. عندها تستطيع أن تقول الإدارة الأمريكية لشعبها أنها حققت إنجازا إنسانيا بخسائر قليلة، وأنه من الممكن تحقيق إنجاز مثله ضد أنظمة "شريرة" أخرى مثل النظامين السوري والإيراني. سيكون لدى الإدارة الأمريكية حجة قوية تنطلق منها وعلى أغلب الظن أنها ستجد الدعم والتأييد. ومن المكن أيضا أن تجد الدول الأوروبية التي حاولت أن تنأى بنفسها عن العدوان على العراق مؤيدة لخطوة عسكرية أمريكية جديدة لكي توفر على نفسها الإحراج ونتائج الغضب الأمريكي.

إذا كانت سوريا ستبقى على تحفظاتها حيال الطرح الأمريكي-الإسرائيلي بخصوص القضية الفلسطينية فإن أمريكا لن تتوانى في فتح الملف السوري لتبرر الهجوم من أجل الدمقرطة. وكذلك تستطيع أن تفعل بالنسبة لإيران مستعملة ملف التصنيع العسكري الاستراتيجي. ولأمريكا ما تكسبه اقتصاديا وثقافيا من غزو الدولتين. على الأقل ستمضي أمريكا في مخططها نحو تصفية القضية الفلسطينية بعراقيل أقل إذا خرجت كل من سوريا وإيران من معادلة الصراع.

أما إذا نشبت المقاومة في العراق ووجد الأمريكيون أنفسهم أمام واقع مؤلم يسقط فيه الجرحى والقتلى فإن الرئيس الأمريكي سيقع تحت ضغط داخلي هائل من أجل إعادة الشباب الأمريكي إلى بلادهم. عندها لن تفكر أمريكا بغزو أحد ولسنوات طويلة. هنا تكمن المصلحة السورية والإيرانية وربما الأوروبية أيضا. إنه من المصلحة السورية والإيرانية أن تقوم مقاومة في العراق وأن تشتد مع الزمن حتى يبتعد الخطر الأمريكي. أي أن امتناع إيران وسوريا عن دعم المقاومة العراقية لا يخدم الأهداف القريبة والبعيدة للدولتين على الرغم من أنه من الممكن أن يدفعا ثمنا على المدى القصير مثل تدمير بعض منشآتهما أو صنع مشاكل داخلية بتمويل أمريكي.

هنا لا أعني أن على الدولتين أن تعلنا الحرب على أمريكا من خلال المقاومة العراقيـــة، وإنمـــا عليهما تدبر الأمر بطريقة أو بأخرى إذا أرادتا تجنب الغزو مستقبلا. أي أن المقاومة العراقية إن نشبت واستمرت تشكل أملا كبيرا لكل من إيران وسوريا للتخلص من التهديد الأمريكي، وكـــذلك الأمر بالنسبة لشعوب المنطقة الراغبة بالتخلص من النير الأمريكي. هزيمة العراق هـــي هزيمـــة قادمة لسوريا وإيران سواء بالغزو المباشر أو بالخنق المدمر. لكن حتى تستطيع الـــدولتان تـــدبر الأمر بالاستناد على ظهير شعبي قوي فإن عليهما تغيير ما هم عليه وفيـــه. النظامـــان الســـوري والإيراني في تركيبتيهما لا يستجيبان لمرحلة تحد لسياسات الولايات المتحدة في المنطقة. تقتضي مصلحة كل نظام كما تقتضي مصلحة الشعب إجراء تغييرات واسعة وجوهرية في أنظمة الحكـــم وفي مفاهيم المشاركة الشعبية وأساليب التطبيق والحشد. قوة النظام ليست في عدد الآليات التـــي يملكها ولا في أوهامه حول قوة أجهزته العسكرية والأمنية وإنما في الشعب الذي يقف مدافعا عن وطنه ودولته وعن قيادته التي يقتنع بأنها تمثله.